# أوضاع المغرب الأوسط (الجزائر) في أوائل القرن السادس عشر.

د. صباح بعارسية*

مقدمة: عاشت الجزائر في مطلع العصور الحديثة، أي بعد سقوط غرناطة، آخر معقل للمسلمين بالأندلس، أوضاعا حرجة على كل الأصعدة؛ سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية لأسباب وعوامل كانت مشتركة بين بلاد العالم الإسلامي، ولأسباب خاصة بالمنطقة. ذلك أن العالم الإسلامي منذ العصر الوسيط المتأخر عرف تأخرا حضاريا، بينما دخل العالم المسيحي طور نهضة ستبرز آثارها في القرنين 9 و10هـ/15 و16م، وتبعا لذلك انقلبت الموازين بين العالمين، وأصبح العالم الإسلامي في موضع دفاعي والعالم المسيحي في موضع هجومي، وهذا ما عاشته الجزائر في مطلع العصور الحديثة، فقد أصبحت عرضة لحملات صليبية شنتها عليها إسبانيا الكاثوليكية بعد سقوط غرناطة، فهل كانت الحملات الإسبانية سببا للأوضاع التي عاشتها الجزائر في تلك الفترة؟ أم كانت نتيجة لتلك الأوضاع؟

أولا: **الوضع السياسي**: يستخلص من المصادر والمراجع التاريخية الخاصة بفترة الدراسة أن الأوضاع في مطلع القرن 10هـ/16م في المغرب الأوسط، الذي غالبا يعرف منذ ذلك القرن باسم الجزائر، كانت متأزمة، لأن إسبانيا التي استكملت وحدتها السياسية خلال النصف الثاني من القرن 9هـ/15م، بالقضاء على إمارة غرناطة، آخر إمارة إسلامية في الأندلس في 897هـ/1492م وغدت على درجة كبيرة من القوة[1] في عهد الملكين فرديناند (922هـ/1516م) وإيزابيلا (909هـ/1504م)، وحفيدهما شارلكان (965هـ/1558م)، وابنه فيليب الثاني (1006هـ/1598م)[2]، نقلت ميدان الحرب ضد المسلمين إلى بلدان المغرب الكبير[3] التي استقبلت أعدادا كبيرة من المهاجرين الأندلسيين (الموريسكيين) لاسيما في مدنها الساحلية التي غدت مراكز لصناعة السفن[4]، ومنطلقا لهم مع إخوانهم الجزائريين خاصة والمغاربيين عامة لغزو

*أستاذة محاضرة في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ- جامعة الجيلالي بونعامة- خميس مليانة.





السفن والشواطئ الإسبانية، فاضطربت الأمور فيها إلى حد كبير. وقد أدى عجز الدول التي كانت قائمة بها وهي: دولة بني مرين وحلفائهم الوطاسيين في المغرب الأقصى، ودولة بني زيان في النصف الغربي للمغرب الأوسط (الجزائر)، ودولة بني أبي حفص في نصفه الشرقي وفي المغرب الأدنى، عن مواجهة الغزو الإسباني، وفشل تلك الدول في التحكم في زمام الأمور الداخلية، لضعفها الذي نجم عن الافتتان على السلطة، إلى تفكك داخلي كبير؛ فالحفصيون انقسموا الى دولتين إحداها بتونس والأخرى ببجاية، أما السواحل فاستقل كل ميناء بحكومته الخاصة. وفي المغرب الأقصى انفلت الحكم من الوطاسيين وظهر تشبه دويلات بكل من مراكش وسجلماسة. كما استقلت مناطق كثيرة عن بني زيان مؤلفة إمارات هنا وهناك حيث لم تعد هناك حدود معروفة، وتداخلت الممالك، فعمت الفوضى السياسية[5]، ما أدى لنجاح الإسبان في احتلال مواقع كثيرة على السواحل، وتمديدهم لداخل البلاد.

وإذا ما فصلنا القول قليلا فيما يتعلق بالجزائر موضوع هذه الورقة يمكن القول: إن دولة الزيانيين (633-958هـ/1236م-1551م)[6] في النصف الغربي للجزائر في مطلع القرن 10هـ/16م قد أصابها الوهن، لأن احتلال الإسبان للمرسى الكبير في 911هـ/1505م، ووهران في 914هـ/1509م، دفع المدن الساحلية مثل دلس والجزائر وشرشال وتنس ومستغانم إلى تقديم ولائها إليهم[7] خوفا من مصير مماثل لمصير وهران. وكذلك فعلت القبائل المجاورة للمواقع المحتلة، مما خنق تلك الدولة، وجردها من مواردها، ودورها التجاري مع الممالك الأوربية، وحتى مع السودان الغربي. وأفقد سلاطينها مكانتهم في نظر رعاياهم لاسيما عندما تنازعوا على البقية الباقية من الملك[8] ومالوا إلى الاستعانة بعضهم على بعض بالإسبان والأتراك العثمانيين[9]، فصاروا ألعوبة بين هؤلاء وأولئك.

ومنه يمكن القول: إن سقوط وهران بالذات في 914هـ/1509م يد الإسبان قد أزم أمور الدولة الزيانية في الغرب الجزائري حيث اضطربت إلى حد كبير، لأن وهران كانت بوابة تلمسان على الساحل، وكانت تدر أموالا كبيرة عليها بفضل التجارة[10]. وقد نجم عن سقوطها خضوع قبائل بني عامر والقبائل الأخرى للقيمة بأطراف وهران للإسبان[11] مثل عرب سويد الذين كانوا يقطعون السبل على الناس لنهبهم[12]. واضطرار السلطان الزياني الذي تقلص ملكه كثيرا إلى إبرام

معاهدة صلح مع فرديناند ملك إسبانيا في 918هـ/1512م[13]، وهو ما أنكرته عليه الرعية، فانتشر الاضطراب أكثر وأصبحت القبائل متذبذبة في ولائها لهم حيث خضع بعضها للإسبان كما ذكرنا، ومال بعضها إلى الاستقلال عنهم أو إلى التعاون مع العثمانيين بعد استقرارهم في الجزائر. أما القبائل الأخرى فظلت مرتبطة ببني زيان الذين كان سلاطينهم يهادنونهم ويستميلونهم بالمال تارة وبالمصاهرة تارة أخرى[14].

لكن لا يجب أن يُعزى هذا الوضع إلى التناحر على السلطة فقط لأن للأعراب والقبائل دورا في تدهور الأوضاع وضياع هيبة السلطان؛ فبعد سقوط وهران خضعت قبائل بني عامر للإسبان، وكانت تقوم بتموين إسبان وهران مقابل البارود والبنادق، وخضعت كذلك قبائل سويد التي استحوذت على سهول وهران مقابل مساعدتها للإسبان، لكن بربروسا[15] حال دون هذه التجارة مما أثر سلبا على إسبان وهران وأدى إلى معاناتهم وحصارهم بالمدينة. كما لا يجب أن ننسى أن قبائل أخرى رفضت دفع الجزية للإسبان كبني راشد وبني زناتي وأولاد سليمان وأولاد موسى[16].

وكان من نتائج مهادنة السلطان أبي حمو الثالث (909-923هـ/1503-1517م) للإسبان وسجنه لأخيه أبي زيان أحمد الثاني في 923هـ/1517م وإثقاله كاهل الرعية بالضرائب، التي كانت معفاة منها[17]، أن استغاثت هذه الأخيرة بعروج بربروسا على لسان مناصري الأمير أبي زيان[18]، فاستجاب عروج لهم وجاء إلى تلمسان في 923هـ/1517م وهزم سلطانها المذكور وفرض سلطته فيها[19]. لكنه لم يلبث بها كثيرا لأن الإسبان حملوا عليه مع أبي حمو المخلوع، وتمكنوا من قتله على يد مارتن داركوت M.D'Argte في 924هـ/1518م[20]، وإعادة الملك للسلطان الذي استنجد بهم. وبعد وفاة هذا الأخير خلفه عبد الله الثالث بن المتوكل مبعدا أخاه أبا سرحان مسعود الذي لجأ لخير الدين بربروسا ليستعين به ضد أخيه. لكنه عندما آل إليه الملك نكث عهده معه فمال خير الدين إلى دعم غيره (أبا محمد عبد الله)[21]. وتواصل مسلسل استعانة الأمراء الزيانيين بالإسبان وبالعثمانيين[22] إلى أن حسم هؤلاء الأخيرون أمر تلمسان ومملكتها في 958هـ/1551م بإلحاقها بحكومتهم بالجزائر[23].





أما النصف الشرقي من المغرب الأوسط (الجزائر) فعرف هو الآخر في مطلع القرن 10هـ/16م وضعا مماثلا لما كان سائدا في النصف الغربي، إذ كان يعاني هو الآخر من الغزو الخارجي الإسباني والجنوي الذي استهدف المدن الساحلية كبجاية وجيجل وعنابة. وأدى عجز الأمراء الحفصيين في بجاية وقسنطينة وتونس عن المواجهة والتحكم في زمام الأمور إلى تفكك كبير وبروز وحدات سياسية صغيرة هنا وهناك تحت حكم إمارات قبلية ودينية في بلاد القبائل، وفي المناطق الداخلية التي تليها من جهتي الشرق والجنوب التي كانت مستقلة[24] في المدن[25] والأرياف[26] والجبال، والواحات كالذواودة[27] فيما بين بسكرة وقسنطينة وسطيف، وبني جلاب في تقرت[28]، وآل علاهم في ورقلة، وآل القاضي في زواوة الغربية[29]، وآل عبد العزيز وآمقران في زواوة الشرقية[30] وغيرها، فصارت دواخل البلاد وحتى مشارف عاصمة الحفصيين تونس تحت نفوذ المتمردين على أواخر السلاطين والأمراء الحفصيين[31].

وبسبب هذا الوضع المتردي وبدعوى الرد على أعمال القرصنة التي كان يقوم بها المسلمون المغاربيون والمهاجرون الأندلسيون ضد سفن وسواحل الإسبان هاجمت إسبانيا بعدة حملات سواحل الضفة الجنوبية للمتوسط خاصة بعد ثورة المسلمين بجبال غرناطة في 907هـ/1501م، وتمكنت من احتلال أهم المدن والموانئ الساحلية مثل المرسى الكبير ووهران وبجاية[32]...

إن الحملات الإسبانية- وإن كان لها صبغة دينية- تقف وراءها أسباب أخرى منها تخوف الإسبان من استعادة المسلمين للأندلس لذلك حملوا الحرب إلى أرض العدو لتقطع كل أمل للأندلسيين في العودة لفردوسهم المفقود[33]. كما خططت إسبانيا لقطع دابر القرصنة من الضفة المقابلة[34]، كذلك حلمت إسبانيا بإقامة إمبراطورية كبيرة. وهناك سبب آخر لتلك الحملات وهو اقتصادي؛ فبعد سقوط غرناطة تعطل الإنتاج بعد إبعاد الأندلسيين، وتراجعت المعاملات المالية والقروض بإبعاد اليهود فكان الغزو والاحتلال سبيلا للكسب والنهب[35].

وقد نجح الإسبان في بضع سنين في احتلال مواقع هامة عديدة على طول الساحل الجزائري، كانوا ينطلقون منها للإغارة على المناطق المجاورة لتلك المواقع للنهب والسلب فقط لا لاحتلالها[36]. هذه الغارات لم تكن للتسلية فقط بل للضرورة لأن الإسبان كانوا يتمونون من النهب ما أدى إلى هجرة سكان المناطق المجاورة للمواقع المحتلة فيما بعد، ما نتج عنه حرمان الإسبان من تموين قار.

لهذا منعها الحكم المركزي بإسبانيا بداية من 972هـ/1564م[37]. لكن اكتفاء الإسبان باحتلال مواقع على الساحل أدى إلى تذمر السكان في المناطق المجاورة لها لا إلى إخضاعهم[38]. ولا يجب أن نغفل أن ما بدأته القبائل الهلالية (الأعراب) من النهب والتخريب أكملته الحملات الإسبانية بالإبادة[39].

وقد كان الغزو الإسباني وفشل الحفصيين والزيانيين في التصدي له، وميلهم إلى مهادنة المحتلين الإسبان، من أسباب بروز القوى الدينية على المسرح السياسي لقيادة المقاومة ضد المحتلين، وملء الفراغ الذي أحدثه ضعف الحفصيين والزيانيين. وتحالفت تلك القوى مع طلائع العثمانيين الذين كانوا يجوبون الحوض الغربي للمتوسط ويتصلون بهم، وأدى ذلك إلى استقرارهم على الأراضي الجزائرية: أولا في جيجل منذ 920هـ/1514م، ثم في مدينة الجزائر في 922هـ/ 1516م. واستحكمت العلاقة بين الطرفين لمدة تزيد عن ثلاثة قرون أنقذوا خلالها البلاد الجزائرية من الاحتلال الإسباني الكامل لها، وتمكنوا من إقامة حكم قوي في الجزائر طوال تلك الفترة لم تتوتر فيها تلك العلاقة إلا في أواخر حكمهم.

ومما تقدم يمكن القول: إن طلب الجزائريين مساعدة العثمانيين كان بسبب ضعف السلطة المركزية في تلمسان وتونس، والمحلية هنا وهناك، وتغلب الإسبان على السواحل الجزائرية، واتساع رقعة نفوذهم إلى ما جاورها، واكتساحهم الساحة قد وجد التجاوب المرغوب لدى الإخوة بربروسا والسلطان العثماني سليم الأول (918-926هـ/1512-1520م)، والفرصة كانت مواتية لتحقيق انضمام الجزائر للدولة العثمانية، وربما لكل تلك الأسباب مجتمعة وظروف المرحلة وحركية التاريخ المتواصلة فإن دخول العثمانيين للجزائر أنقذها من براثن إسبانيا الكاثوليكية، وحماها من مصير مماثل لمصير الأندلس.

فالتطاحن على السلطة وهجمات الأعراب والهجرة الأندلسية وما تبعها من تحريض الأندلسيين لإخوانهم المغاربة ضد الإسبان، كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى تجرؤ الإسبان لغزو الضفة الجنوبية للمتوسط. لكن هذا الغزو الإسباني لسواحل الجزائر ومحاولة توغله نحو داخل البلاد أعطى الفرصة للقوى الدينية ممثلة في المرابطين وأتباع الطرق الصوفية والأشراف والراغبين في الجهاد في





سبيل الله إلى المناداة بالجهاد ضد الغزاة الإسبان؛ فبرزت عناصر منهم على المسرح السياسي تحالفت مع أوائل العثمانيين لرد "الكفار".

ثانيا: **الوضع الاقتصادي**: تتفق المصادر والمراجع على أن الأوضاع الاقتصادية في الجزائر قد مالت في مطلع القرن 10هـ/16م إلى التأزم نتيجة الأوضاع السياسية المشار إليها أعلاه من غزو خارجي وتفكك داخلي مما جعل الأمور تضطرب في كل أنحاء البلاد إلى حد كبير، وكان لكل ذلك أسوأ الأثر على مختلف الأنشطة الاقتصادية: الزراعية والصناعية والتجارية. وإذا ما بحثنا بشيء من التفصيل فيما آل إليه كل نشاط من الأنشطة الاقتصادية المذكورة عشية قيام الحكم العثماني في الجزائر وجدنا:

1/ **فيما يتعلق بالزراعة**: أصيبت في الصميم حيث هجر كثير من الفلاحين أراضيهم نتيجة اضطراب الأمن بعد تزايد الأخطار المحلية والخارجية، ومما يدل على تدهور الزراعة أن مدنا ومناطق كثيرة باتت مهددة بالجوع لأن المحاصيل الزراعية لم تعد تكفي حاجة السكان[40]. ويذكر هايدو أن عروج وزع القمح الذي وجده في إحدى السفن التي استولى عليها على أهالي جيجل الذين كانوا في حاجة ماسة إلى تلك المادة فاستحسنوا عمله معهم[41]. أما الحسن الوزان فكثيرا ما أشار في كتابه إلى انعدام الأمن في الطرق والأرياف والأسواق مما أدى إلى هجرة السكان من بعض المناطق إلى غيرها بحثا عن الأمن؛ فافقرت المناطق الخصبة، وقد نجم عن ذلك تخلخل ملحوظ في كثافة السكان، فبعض المناطق ازدادت فيها الكثافة السكانية لما توافد عليها من الناس كمدينة تلمسان وقسنطينة، وبعض المناطق الجبلية في بلاد القبائل وغيرها. وتناقصت كثافتهم في بعضها الآخر كما حدث في سطيف والمسيلة ومستغانم وشرشال قبل أن يأوي إليها الأندلسيون بكثافة[42].

إن تدهور الأمن قد أدى إلى عدم اطمئنان العاملين في حقل الفلاحة وعدم استقراره على ملكية واحدة؛ فتدهور هذا القطاع وأدى ذلك إلى تدهور أحوال الفلاحين، وآل أمر أغلبهم إلى الفقر والبؤس[43].

2/ فيما يتعلق بالصناعة: لا يمكن الحديث أصلا عن وجود صناعة بالمعنى الشائع، وإنما الأصح هو الحديث عن وجود بعض الحرف والصنائع في شكلها البسيط غير الآلي مثل حرف النسيج للزرابي والحياكة والأقمشة، والحرف الخاصة بصناعة الأدوات البسيطة التي كان يحتاجها الفلاحون كصناعة السروج والأجمة للخيول، وسكك المحراث والمناجل والفؤوس والخناجر والسلال والحصر والأواني الفخارية إلخ. كما كان يتم تصنيع الفحم من أشجار الخروب[44]. وقامت في بعض المناطق كما في كوكو ببلاد القبائل بعض الصناعات المعدنية لتوفر المادة المستعملة في تلك الصناعات فيها كالحديد وملح البارود، فكانت تصنع هناك السيوف والرماح والبارود[45]. وفي بجاية قبل احتلالها كانت تصنع السفن لتوفر الأخشاب بجبالها[46] وبمدينة الجزائر[47] وشرشال[48]. غير أن الوضع المتأزم حال دون قيام صناعة قوية.

3/ فيما يتعلق بالتجارة: أما الوضعية التي آلت إليها التجارة الخارجية والداخلية فيمكن القول إنها لم تكن جيدة.

ا/ التجارة الخارجية: أخذت تعاني منذ نجاح ما يسمى بالكشوفات الجغرافية في اكتشاف طرق تجارية جديدة[49]، ولاسيما منذ اشتداد النزاع بين المغاربيين والإيبريين، خاصة بعد سقوط الأندلس واضطهاد المسلمين فيها وانتشار القرصنة التي كان ينشطها على السواء المسلمون والمسيحيون، وإقدام الإيبريين على احتلال كثير من المنافذ البحرية لبلاد المغرب، وحظر التجارة بينها وبين الأمم الأوربية[50] التي كان تجارها يأتون للتجارة في الموانئ المغاربية. كما أدى الاحتلال إلى تدهور يكاد يكون كاملا، وظهر أثر ذلك جليا في تضعضع موارد التجارة في الموانئ المغاربية المحتلة منها وغير المحتلة.

فالدور التجاري لوهران وبجاية وحتى لحنين وعنابة وغيرها اضمحل أو كاد خاصة بعد وقوع بعضها تحت الاحتلال وتدمير أو تهديد بعضها الآخر لأن تلك المدن كانت تعتمد على التجارة مع البلدان الأوربية المتوسطية كالبندقية وجنوة وغيرهما، فقد اندثرت مدن بأكملها كما حدث لحنين، وتدهورت مدن أخرى كما حدث لمزاغران لأن هذه المدن كانت تعتمد على التجارة مع المسيحيين، وتبعا لذلك عانى سكان الجبال بضواحي وهران من الفقر الشديد لأنهم كانوا قبل الاحتلال يعيشون من بيع الحطب للمدينة[51]. كما أن قتل التجار المسيحيين الذين كانوا بتلمسان





بعد غزو وهران مباشرة أضر بمداخيل المملكة الزيانية التي كانت تعتمد أساسا على تجارة المسيحيين بين ضفتي المتوسط؛ فاضطر السلطان الزياني لرفع الإتاوات لتغطية نقص المداخيل لكن السكان رفضوا فلم يجد بدا من وضع نفسه تحت الحماية الإسبانية. كما حاول الزيانيون حماية ما تبقى من تجارتهم مع المسيحيين بإقامة حامية بحنين (54 كلم عن تلمسان) لكن شارل الخامس أمر بتخريبها لتقطع دابر القرصنة التي كانت تنطلق منها[52]. ذلك أن دخل تلمسان تراجع بعد احتلال وهران وانفراط المناطق الخاضعة لها، لأن المدن التي وقعت تحت الاحتلال الإسباني كانت تعود على الدولة بعائدات الجمرك[53]؛ ففقدت بذلك الاحتلال مواردها منه.

ب/ أما التجارة الداخلية: فقد عانت من انعدام الأمن، وسكان الجبال لم يتمكنوا من بيع سلعهم بالسهول خوفا من الأعراب، وبالمدن خوفا من الحكام لأنهم كانوا لايدفعون الضريبة. كما عانت تجارة قسنطينة مع السودان الغربي الأمرين من قطاع الطرق لهذا كان التجار يؤجرون بعض الأشخاص لحماية قوافلهم[54]. وكثيرا ما انتقل التجار بحرا متفادين السير خوفا على تجارتهم من الأعراب[55]. فالطرق كانت غير آمنة على الناس وحتى على الحجاج لهذا أقام العثمانيون فيما بعد، لما آل الحكم إليهم، الأبراج (برج منايل، البويرة، صور الغزلان[56]...) لتأمين الطرق[57].

لهذا نجد أن مداخيل الإمارات الجزائرية في أوائل القرن 10هـ/16م كانت تتكون أساسا من مغانم القرصنة والضرائب على التجارة والزراعة. والملاحظ أن الضرائب لم تكن تستقر على يد قابض واحد، فتارة عند الإسبان وتارة عند العثمانيين، بعدما كانت تبعا لولاء المناطق لإحدى دول المغرب الأوسط، وهذا جراء عدم الاستقرار السياسي وكثرة النزاعات والحروب. وقد كانت المدن الساحلية تعيش على غنائم القرصنة ولا تأبه بالمشاكل التي تسببها جراء ذلك للداخل[58].

وتقف العملة الرديئة التي كان يسكها أواخر السلاطين الزيانيين لتغطية مصاريف حروبهم، سواء من الذهب أو من الفضة أو النحاس المخلوط بها[59]، دليلا على الضعف الاقتصادي الذي آل إليه الاقتصاد في مملكتهم.

ومثل ذلك كان يفعل أمراء بجاية وقسنطينة الحفصيين، وهو دليل على الضعف والتدهور الذي آل إليه الاقتصاد في النصف الشرقي من البلاد، فقد كان أهل بجاية يصنعون نقودا يتعاملون بها لتوفر الحديد بمنطقتهم، رغم استعمالهم لنقود الفضة والذهب[60].

استمر الوضع كذلك إلى أن أُلحقت الجزائر بالدولة العثمانية في 925هـ/1519م بعد أن أكرم السلطان سليم الأول الوفد الذي بعثه خير الدين بربروسا إليه[61]، ووافق على انضواء الجزائر تحت حمايته فضرب خير الدين السكة[62]، ومعلوم ما لضرب السكة من مظهر لسيادة الدولة.

ومما تقدم يمكن القول إن الوضع الاقتصادي كان متأزما بسبب الغارات الإسبانية على سواحل الجزائر، وانعدام الأمن بالريف بسبب الأعراب الذين عاثوا فسادا، ما أدى إلى ركود الزراعة وتدهور الصناعة والحرف وتذبذب التجارة، وأخيرا بسبب التطاحن على السلطة الذي عرفته الدولة الزيانية في النصف الغربي للجزائر والدولة الحفصية في النصف الشرقي منها.

ثالثا: **الوضع الاجتماعي**: إن الباحث في هذا الجانب من التاريخ الجزائري في مطلع العصور الحديثة يجد أن البنية السكانية في المغرب الأوسط (الجزائر) كانت تتألف أساسا من عنصرين أساسيين هما الأمازيغ والعرب اللذين كانا على دين واحد هو الإسلام ومذهب متبع من غالبيهما هو المذهب المالكي مما سهل الاندماج والانصهار بينهما إلى حد كبير. ومع أن الكتاب المعاصرين للقرن 10هـ/16م كانوا ما يزالون يميزون بين القبائل ذات الأصول الأمازيغية والقبائل ذات الأصول العربية فإن عملية الانصهار والاندماج فيما بينهما كانت سائرة ومستمرة، وهذا الشكل ملحوظ من عهد ابن خلدون الذي أشار إلى ذلك وذكر أن زناتة البربرية اندمجت في القبائل العربية[63].

وكان نمط المعيشة الغالب في المدن هو الاستقرار والتحضر، بينما غلبت على سكان الأرياف البداوة والترحال لقسم من السكان، ولاسيما في المناطق التي تقل فيها المياه أو يسود فيها الجفاف.

وقد تمكنت بعض القبائل العربية والأمازيغية من السيطرة على مناطق شاسعة من البلاد أصبح النفوذ فيها لزعامات تلك القبائل. وقد استأثرت بعض العائلات بالسلطة عليها، ومن أهمها:

- آل القاضي في كوكو بزواوة الغربية[64].
- آل مقران في بجاية وما جاورها في زواوة الشرقية[65].
- آل علاهم في ورقلة[66].
- آل بني جلاب في توقرت[67].
- وآل الثعالبة في مدينة الجزائر وما جاورها[68].
- آل بوعكاز في بسكرة وما جاورها[69].





- الأحرار في الحنانشة والنمامشة في الشرق الجزائري[70].

كما استولت قبائل عربية على وادي الشلف الخصيب بعد أن كونت اتحادا بين القبائل عُرف بالمخال؛ والمخال أو الصف عبارة عن كونفدراليات للدفاع المشترك؛ مثل قبيلة الصبايح وبني عامر وبني عقبة وبني هبرة وبني سويد...، وكان الحكام سواء بتلمسان أو بتنس يدفعون لهم رواتب ليتقوا شرهم وليحافظوا على أمن البلاد[71].

وقد انضاف إلى المجتمع الجزائري في مطلع العصور الحديثة مجموعات سكانية وفدت إليه من شبه جزيرة إيبيريا على الخصوص، ولكن بأعداد كبيرة حطت رحالها في مختلف المدن الساحلية، وحتى في بعض المدن الداخلية. وساهمت بوجودها فيها في تنوع المشهد البشري وفي تنمية الحياة المدنية وتفعيل الحياة الاجتماعية فيها، والمراد بها ما يسمى بالأندلسيين؛ المسلمين منهم واليهود، الذين كونوا جالية في موطنهم الجديد لا يعرف عددها بالضبط ولعلها بمئات الآلاف. وقد عانى الأندلسيون من الأعراب، خاصة من أولاد هبرة، وأصبحوا، بعد أن تمركزوا على السواحل، جنودا للجهاد يحرّضون السكان ضد النصارى حتى أثروا سلبا على العلاقات التجارية بين المسلمين والمسيحيين، على أن المغاربة تضامنوا معهم، ولعلهم كانوا السبب في القرصنة على أساطيل إسبانيا، فردت إسبانيا بالمثل[72]. أما اليهود فاشتغلوا في التجارة والصياغة والشؤون المالية والمصرفية لكنهم تعالوا على الوظائف العامة[73]. وقد كان لهؤلاء وأولئك نشاطهم المتميز في مختلف جوانب الحياة؛ الاقتصادية والسياسية فضلا عن الحياة الاجتماعية.

كما ساهم السودانيون في تلوين المشهد البشري في الجزائر، في المدن التي تكاثروا فيها، كالمدن الصحراوية وبعض المدن الساحلية كمدينة الجزائر، وفي الحواضر الأخرى كتلمسان وقسنطينة. وكانوا عبيدا استقدموا من السودان الغربي عن طريق الواحات للعمل في المنازل بعد التدريب بورقلة ووادي ميزاب[74].

ثم انضاف إلى كل من تقدم ذكرهم مجموعات سكانية أخرى بأعداد متفاوتة أهمها الأتراك[75] الذين توافدوا على الجزائر من مختلف المدن التركية في آسيا الصغرى، ومن المناطق الأوربية التي خضعت للحكم العثماني، وبدؤوا في الاستقرار في المدن الساحلية منذ العقود الأولى من القرن 10هـ/16م. وتركز وجود هذه المجموعات في الحواضر التي كانوا يعملون بها، على الخصوص في

صفوف الجيش البري والبحري. ونتج عن تزاوجهم مع نساء العناصر المحلية سابقة الذكر مولدون كان يطلق عليهم اسم الكراغلة، ظهرت لأول مرة في المدن التي تقيم بها الحاميات كالجزائر وتلمسان ومعسكر وقلعة بني راشد وقسنطينة والمدية.

ولا نختم الحديث عن المشهد البشري في الجزائر دون أن نشير إلى العنصر الأوربي[76] الذي لم يكن يشكل جالية كبيرة العدد في الجزائر في العصر الوسيط، ثم أصبح خلالها موجودا بقوة كعنصر محتل متمثل في الإسبان في المواقع المحتلة من قبلهم، أو كعنصر متاجر أو واقع في الأسر أو رجال الإرساليات التبشيرية[77] أو في الجيش أو الحكم، بعد أن يكون هؤلاء قد أسلموا، وفتحوا بذلك باب الترقية إلى مختلف المهمات والمناصب.

على أن المجتمع الجزائري كان في غالبيته في مطلع العصور الحديثة مجتمعا ريفيا، بدويا لأن سكان المدن كانوا قليلين، وقد اضطر كثير منهم إلى الفرار من المدن التي احتلها الإسبان أو كانت مهددة بالاحتلال فأصبحوا من سكان الأرياف مثلما حدث لسكان بجاية ووهران وحنين الذين نجوا من القتل والأسر. وقد عاش هؤلاء السكان في جوّ من الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي وانعدام الأمن وسوء المعيشة بل وحتى المجاعة، وكانت ردة أفعالهم متباينة في الزمان والمكان، فتارة خضعوا للأمر الواقع، وأخرى هجروا مناطقهم، وثالثة ثاروا على أوضاعهم المزرية.

وكان الأعراب يذيقون أهل المدن أشد العذاب[78] لهذا كثيرا ما لجأ السكان للزوايا هربا من الاعتداءات، وطلبا للأمن مثل زاوية منصور الديلمي[79]، ومنهم من سارع للاعتراف بالحكم الإسباني خوفا من تكرار مذبحة وهران مثل مدينة الجزائر[80]، ومنهم من اعترف بالسيادة العثمانية حماية لتجارتهم مثل قسنطينة التي رضخت لبربروسا بعد أن فتح القل منفذها على البحر[81]، أو درءا للأعراب الذين كانوا يستولون على الزرع والماشية مثل مسيلة[82]، ومنهم من هاجر مثل سكان بجاية عندما دخلها الإسبان، حيث كادت تخلو من أهلها فطلب الملك فاردیناند من حاكمها إضافة بند لاتفاقية الاستسلام يحق بموجبه لسكانها الاحتفاظ بدينهم[83]، ومنهم من تحصن بالجبال هربا من الأعراب والحكام مثل سكان الأوراس[84]، ومنهم من دفعته الحاجة إلى النزول من الجبال بحثا عن أرض هجرها أصحابها فيستولون عليها مثل سكان التلة الذين استولوا على الأراضي المتاخمة لحنين[85].





إن هذه الهجرة القسرية لم يكن سببها الغزو وعيث الأعراب فقط، بل ظلم الحكام دفع بالكثيرين للهجرة، كذلك الفتن التي نجمت عن التطاحن على الحكم بين الأمراء أو بين القبائل على مناطق الكلأ أو النفوذ؛ فمعظم المدن كادت تخلو من سكانها بسبب ظلم الحكام كما حصل بكل من ميلة وبونة وتبسة[86]، أو بسبب التطاحن على الملك كما حصل لمازونة، أو بسبب الأعراب، أو خوفا من غارات الإسبان[87]، خاصة وأن متطلبات الحياة اليومية لم تكن في متناول السكان، لهذا انتشر الفقر مما أثر على الحياة النفسية للسكان، لهذا ذكر الحسن الوزان أن سكان المدن كانوا تعساء[88]، لا يحصلون من أعمالهم ما يساوي مقدار المال المفروض دفعه للولاة أو للأعراب مقابل السماح لهم بفلاحة الأرض[89]، فالفوضى العارمة بالمدن والأمن المفتقد بالطرق[90] دفع الناس إلى الهجرة نحو الريف أو خارج البلاد.

وقد نجم عن حالة الاضطراب الذي أحدثه الغزو الإسباني، وعيث الأعراب في الأرياف والبوادي تدهور ملحوظ في حياة السكان المعيشية وحياتهم الصحية، فقد عانى السكان من المجاعة من فترة لأخرى، ومن تدهور الحالة الصحية كما حدث في وهران وبجاية اللتين أصابهما الطاعون[91]، وجيجل التي عانت من المجاعة في 921هـ/1515م إلى أن أنجدها عروج بالقمح الذي حاز عليه في إحدى خرجاته البحرية[92]، ومنطقة بني راشد التي عانت من مسغبة أهلكت العباد، فلجأ الناس إلى زاوية القطب المليانى (927هـ/1521م) الذي أعال وسد رمق الجائع[93].

وخلاصة القول إن الوضع الاجتماعي في الجزائر كان متأزما مضطربا بسبب الغزو الإسباني والأعراب وقد نجم عن ذلك:

- معاناة السكان من الفوضى بسبب التطاحن على السلطة.
- تدهور الحالة الصحية للسكان بسبب الفقر وانعدام الأمن.
- ما أدى إلى هجرة قسرية للسكان؛ داخلية وخارجية.

ثالثا: الوضع الثقافي: إن عجز الزيانيين والحفصيين الذين كانوا يتقاسمون الحكم في المغرب الأوسط عن صد الهجمات الإسبانية، وفشلهم في التحكم في زمام الأمور الداخلية، كان له أسوأ الأثر على الحياة الثقافية من جراء ما تعرضت له المراكز الثقافية من دمار وتخريب، وما تعرض له العلماء والطلبة من قتل وأسر وتحجير...، وقد أدى ذلك إلى انتشار حركة التصوف، وظهر أثر

ذلك في مجال التعليم حيث أخذ التعليم الصوفي والتصوف يصبح ظاهرة غالبة في تلك الفترة، أي أواخر القرن 9هـ/15م، في البوادي والمدن، بعد أن كان منحصرا قبل ذلك، أي في الفترة الوسيطة، في المدن فقط، وفي مطلع العصور الحديثة شهدت البلاد حركة هجرة داخلية للعلماء من المدن نحو المراكز الريفية بسبب الاضطرابات والأخطار الخارجية.

فمنذ النصف الثاني من القرن 9هـ/15م على الأقل، انتشر الصوفية شرقا وغربا، ينذرون بقرب الساعة، ويطلبون النجاة من شرور زمانهم ومجتمعهم، فساعدوا بذلك على الضعف السياسي والانحلال الاجتماعي والتخلف الفكري[94]. فـ"الأسلم في ذلك الوقت (أواخر القرن 9هـ/15م وأوائل القرن 10هـ/16م) الاشتغال بالعبادة، والنظر في حال المأكل، وقلة مخالطة الناس لأن الزمان فسد، ولا يأمن على نفسه الفتنة في مخالطتهم ولو كانوا أهل علم وعبادة"[95]. وقد جاء في مقدمة كتاب "تاريخ بني زيان" للتنسي حديث عن استفحال ضرب من التصوف الشعبي تميز بانحطاط مستواه الفكري في عصر التنسي، حيث آمن الناس بكرامات الأولياء وتصرفهم في الكائنات[96]، وهو ما يفهم من هذين البيتين من قصيدة شعرية اعتبرت حرزا لمن يقرؤها وقد شرحها ابن مريم:

مرادي متن المولى وغاية أمالي دوام الرضى والعفو عن سوء أعمالي[97].

ووصل التخلف الفكري لدرجة الاعتقاد في بركة لعاب الصوفي الذي بمجرد أن يبصق في فم الذي لا يعيش له خلف حتى يُرزق أولادا أصحاء[98].

إن هجرة العلماء وانزواءهم قد جعل من الصعب العثور على قاض أو إمام أو حتى متعلم لقراءة رسالة[99]، فكيف بحال الناس في أمور دينهم ودنياهم؟ وقد كان الأعراب يبحثون عن قاض لفك النزاعات بينهم متنقلين على جمالهم لمدة خمسة أو ستة أيام ليعثروا على أحدهم[100]. وقد كان يحث على الهجرة ويدعو إليها علماء أجلاء مثل أحمد بن يوسف السنوسي (أواخر القرن 9هـ/15م) الذي دعا لاعتزال الناس والمكوث بالبيت والبكاء على ما آل إليه العباد والبلاد إلى أن يفعل الله أمرا كان مقضيا[101]. وأحمد البجائي (صدر المائة العاشرة هجرية/القرن 16م) الذي دعا للفرار بالنفس من الفتن بعد انسداد المسالك والافتقار للمعلم الناصح والصبر لحين الرحيل[102].

إن عجز الحكام عن حماية الأرض والسكان من الأخطار الداخلية والخارجية قد أدى إلى انتشار اليأس والسخط والقلق، وكان لكل ذلك أسوأ الأثر على الحياة الثقافية والمراكز الثقافية. وإذا





كانت بعض المراكز العلمية قد حافظت على بعض أهميتها رغم الأوضاع المتردية كتلمسان حاضرة بني زيان، وقسنطينة بفضل من كان فيها من أهل العلم ومن انضم إليهم من المراكز العلمية الأخرى التي خربت أو باتت مهددة بالغزو والخراب، فإن مراكز أخرى عديدة قد فقدت أهميتها كلية أو جزئيا كما حدث لوهران وبجاية على الخصوص التي هجرها علماؤها بعد الاحتلال إلى مراكز علمية أخرى أكثر أمنا في الجزائر أو فيما جاورها إلى المغرب الأقصى وتونس أو حتى إلى المشرق أو بلاد السودان. على أن النشاط الثقافي والمستوى العلمي في تلك المراكز قد مال إلى الركود والهبوط، وهو ما تنبأ به ابن خلدون عندما لاحظ تزايد المختصرات والملخصات والتقايد بدل الإبداع[103]، والاكتفاء بالتقليد دون نظر[104]، والتزام الزوايا بالعلوم الدينية فقط وجهلها لما عدا ذلك من العلوم كالفيزياء والرياضيات[105]، وأضحت قراءة السيرة لا تعدو أن تكون ترديدا لمنظومات مليئة بالغلو والتغزل في عيون النبي وخدوده وقوامه... تاركين سيرته صلى الله عليه وسلم وجهاده ومعاناته، فشُغل الناس بذلك[106]، وأصبحت عملية استعادة الموروث هدفا للنشاط الذهني والثقافي؛ فانعدمت القدرة على الإضافة، وأبدت النخب عدائية صريحة تجاه التجديد بدعوى الخوف من المروق عن السنة، ولم تنج الكتابة التاريخية التي عانت نوعا من التزوير منذ نهاية العصور الوسطى من هذه السمات الدالة على التراجع، وهو أمرا استمر في القرن 9هـ/15م وحتى القرن 10هـ/16م وما تلاهما، وشاعت مصنفات التراجم، واهتم عدد من المؤلفين بتذييل مؤلفاتهم، وتخصيص الفصول الأخيرة منها لجرد أسماء العلماء والأولياء أو الصلحاء الذين عاصروهم وانتسبوا إلى مدينتهم، واهتمت أكثر هذه الأعمال بالجوانب الإنشائية البحتة والمغالاة والتحليات عبر تعداد الشمائل والمناقب وحتى الكرامات، فاستُعيض بالفكر والتأمل بالنقل، والقول بالإلهام اللدني المتعالي عن كل إدراك عقلي، وسقط النسيج العازل بين الثقافتين العالمة والشعبية داخل الفضاء الذهني المغاربي[107]. ولأنه عصر حكم عليه بالعقم المعرفي وضيق أفق شخصياته وتبعيتها الثقافية (إنتاج السلف) فإعادة استعادة ما تم نسيانه كان يعد تقدما في ذاته. وأضحى التزهد والانقطاع للتصوف دليل على سلامة النية ومتانة المستوى المعرفي لدى النخب[108].

فنشأت أزمة نفسانية اتخذت بالضرورة لونا دينيا إذ كانت الهجمات الإسبانية ذات طابع ديني، ولمواجهتها لم يكن ينفع سوى جهاد مضاد فترك الملوك المكان لأبطال جدد: قادة محليين:

رؤساء مجالس أعيان، شيوخ قبائل، ورثوا هيبة ونفوذ الدولة بعد أن قادوا بحماس ونجاح جماعات من المرابطين والمجاهدين، ونالوا ولاء جمهور المسلمين[109].

وخلاصة القول إن الوضع الثقافي تفهقر لأسباب تعود لعصر ابن خلدون وأخرى تعود لبداية القرن 10هـ/16م من غارات إسبانية وتطاحن على الحكم، الذي أدى إلى انعدام الأمن بالمدن والطرقات، ما دفع بالعلماء وطلبة العلم إلى الهجرة إلى الأرياف أو إلى خارج الوطن أو إلى الانزواء.

**خاتمة:** عاشت الجزائر في مطلع العصور الحديثة أوضاعا متعفنة أواخر القرن9هـ/15م وأوائل القرن 10هـ/16م في كل الميادين؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية؛ من صراع الحكام على العروش، وسيطرة الأعراب على مداخل المدن ومخارجها، وما زاد الطين بلة الهجرة الأندلسية التي كانت مبررا للإسبان لاحتلال المدن الساحلية للضفة الجنوبية للبحر المتوسط.

هذا الوضع أضر بالاقتصاد؛ فالغارات الإسبانية والاحتلال أديا إلى تدهور التجارة الخارجية مع الضفة المقابلة للمتوسط وهجمات الأعراب أتت على التجارة الداخلية.

والوضع الاقتصادي أدى بدوره إلى تدهور الوضع الاجتماعي؛ فانعدام الأمن بالطرقات الذي أضر بالتجارة أدى إلى سوء معيشة وأحيانا إلى مجاعات ما أثر على الحياة النفسية للسكان.

هذا الوضع أدى إلى تردي الوضع الثقافي حيث أضحى العالم والمثقف في تلك الفترة هو من يجتر أعمال من سبقوه بتقييدها وشرحها، وتقريض هذا العالم أو ذاك، وأحسنهم حالا من اعتزل الناس خوفا على نفسه من الفتنة.

أمام هذا الوضع، خاصة الاحتلال الإسباني لمدن الساحل، وتدخلهم في شؤون الدولة الزيانية بتلمسان والدولة الحفصية بتونس وأمام فشل الحكام في رد الخطر الخارجي ظهر رد فعل من طرف بعض المتصوفة الذين دعوا إلى إنقاذ البلاد والعباد من "الكفار"، وتحالفوا مع أوائل العثمانيين.

**الهوامش:**

1) إن تتابع المخترعات التقنية: انتشار استعمال البارود، تعدد المراكز الفلكية، تطور تقنيات للملاحة البحرية، ظهور الطباعة... كل هذا جعل أوروبا تتحفز لتجاوز حدودها الجغرافية المعروفة ورسم خطتها التوسعية التي لم يكن لها أن تستثني الأعداء التقليديين المرابطين على الضفة المقابلة. أنظر لطفي عيسى: مدخل لدراسة تموجات النهضة المغاربية خلال القرن 17م، سراس للنشر، تونس، 1994، ص. 28.

2) سيطر هذان الملكان الكاثوليكيان في 897هـ/1492م على غرناطة آخر معقل إسلامي بالأندلس، وفي نفس السنة اكتشف كريستوف كولمب العالم الجديد ومنذئذ بدأ الإسبان في تكوين إمبراطورية عظيمة.





وأصبحت إسبانيا مع البرتغال تمثلان القوتين البحريتين في العالم خلال القرن 10هـ/16م. وفي 923هـ/1517م تزوج شارل الخامس (906-965هـ/1500-1558 م)ملكا على إسبانيا و نصب إمبراطورا في 926هـ/1519م ولقب بشارلكان، حارب فرنسا مدة ثلاثين سنة. واجه العثمانيين في فينا 935هـ/1529م، تنازل عن العرش لابنه فيليب الثاني في 962هـ/1555م، الذي صادف تولية الحكم القرن الذهبي الإسباني ووفاته بداية العد التنازلي لها. تعصب فيليب الثاني للكاثوليكية، فقد طهر إسبانيا من البروتستانت والموريسكيين بين 966هـ/1559م و987هـ/1579م، وهزم العثمانيين في ليبانت (978هـ/1571م)، وضم البرتغال لملكه في988هـ/ 1580م، لكن الإنجليز هزموه في 997هـ/1588م، حيث تلقت الأرمادا ضربة موجعة. أنظر أحمد جامع: الأصالة الناشئة، دار المعارف بمصر، 1968، ص.29.

3) الانطلاقة التي عرفتها الحياة الدينية في القرن 9هـ/15م بإسبانيا وتحكم لكاردينال كزيمنس في سياستها الدينية تجاه المسلمين أدت إلى غزو غرناطة، ثم مهاجمة سواحل شمال إفريقيا. أنظر

F. Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen a l'époque de Philippe II, tome 2, 3ème édition, librairie Armand Colin, Parie, 1976, P 20.

4) استقر الموريسكيون على سواحل الشمال الإفريقي، وراحوا يحرضون على كره النصارى، ما أدى إلى تدهور التجارة بين ضفتي المتوسط وانتشار القرصنة في غربه، كرد فعل لحركة تضامن المغاربة مع الموريسكيين الذين أصبحوا جنودا للجهاد على طول الساحل بين مصراتة وسلا، بعد أن فقدوا كل أملاكهم. وتحول سكان المدن الساحلية إلى "قراصنة" يهاجمون السواحل الإسبانية انتصارا لإخوانهم الأندلسيين. وأضحت مدن الساحل مراكز للجهاد، ينطلق منها الموريسكيون وإخوانهم المغاربة للإغارة على السواحل الإسبانية، مستعينين بخبرة الأندلسيين في صناعة السفن الشراعية أو القرقاطات، والعارفين بالملاحة وفنونها، وبخوافية إسبانيا خاصة السواحل. أنظر لوي كاردياك: الموريسكون الأندلسيون والمسيحيون: المجاهة الحتمية (1492-1640) مع ملحق بدراسة عن الموريسكيين بأمريكا، تعريب وتقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية - ديوان المطبوعات الجامعية، تونس، 1983، ص 85.

5) August Cour : l'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la régence d'Alger (1509-1830), E.Leroux éditions, Paris, 1904, p 6.

6) عمار بن خروف: العلاقات بين الجزائر والمغرب، رسالة ماجستير نوقشت في جامعة دمشق سنة 1983، ص 40.

7) Pierre Davity : Description générale de l'Afrique, seconde partie du monde avec tous ses empires, royaumes, états et républiques, chez Claude Sonnius libraire, Paris, 1636, P 159.

نشر احتلال وهران الذعر في قلوب السكان، فسارع الحكام لتقديم الولاء للإسبان خوفا من تكرار المذبحة التي تعرضت لها المدينة، فسارعت مستغانم لدفع الضرائب للإسبان بدل تلمسان، نفس الأمر قامت به طنس وشرشال. كما سارعت تنس من جهتها لتقديم الولاء لهم. والأدهى أنها تحالفت مع الإسبان ضد بوروسا، حيث طلب ابن حاكم المدينة الزياني من لكاردينال كزيمنس مستشار الملك في 922هـ/1516م مساعدته في محاربة بوروسا. وكان قبله سليم التومي حاكم مدينة الجزائر قام بوضع نفسه ومدينته تحت تصرف الإسبان في 916هـ/1510م. وأقام الكونت نافارو بنيون الجزائر (البنيون عبارة عن صخرة بالبحر تقع قبالة مدينة الجزائر، أقام عليها الإسبان حصن لمنع سكان الجزائر من القيام بأي نشاط بحري(القرصنة)) في 917هـ/1511م الذي ضيق على سكانها، مما دفعهم للاستنجاد بالإخوة بربروسا، الذين كانوا متواجدين بجيجل. أنظر ابن رقية محمد التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 1662، نسخ 1194هـ/1780م، ورقة 2 ظهر، كذلك

C.X.de Sandoval : «Oran sous les Espagnoles, éxpédition et razias,l.prise de Mers-El-Kébir », in Revue Africaine, n°13, 1869, OPU, Alger, 1986, P 275. عن الإخوة بربروسا أنظر أسفله.

8) Ch.A.Julien : Histoire de l'Afrique du nord (Tunisie-Algérie-Maroc) de la conquête arabe a 1830, 2ème édition revue et mise a jour par Roger Le Tourneau, Payot, Paris, 1956, tome 2, P 25.

9) L'Abée Bargès : Complément de l'histoire des Béni-Zeiyan rois de Tlemcen, ouvrage du Cheikh Med ABD EL Djalil AL Tenessy, Ernest Leroux libraire-éditeur, Parie, 1887, P 430.

10) Paul Ruff : La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du comte D 'Alcaudete 1534-1558, présentation de Chantal De La Véronne, éditions Bouchene, France, 1998, P 28.

11) محمد الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص142. ذكر سواريز Suarez أن هذا الخضوع كان لحماية قطعانهم من برد الشتاء، على أن هذه القبائل التي كانت تدفع ضريبة للإسبان (الرومية) لم تكن تمانع في عبور الجزائريين أراضيها لمهاجمة وهران، كما أنها كانت تقوم بالتجسس لصالح المسلمين وذلك بإخبارهم بإجراءات إسبان وهران لصد هجماتهم. أنظر

A.Berbrugger : «Mers El-Kebir et Oran de 1509 a 1588 d'après Diégo Suarez Montanes », in Revue Africaine, n° 10, 1866, OPU, Alger, 1986, P 198 et 352.

12) تعوض الأعراب للمرابط أحمد بن يوسف الملياني (927هـ/1521م) طمعا في حيوله و أبقاره...أنظر محمد بن عبد السلام الشريف الحسني: ربح التجارة وبغتم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 928، نسخ 1297هـ/1880م، عن نسخة مؤلفه، 1274هـ/1857م، ورقة 83 وجه.

13) Ernest Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbèrie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830), Ernest Leroux Éditeur, Parie, 1888, tome second, P 425.

14) Jean Léon l'Africain: Description de l'Afrique, traduit de l'italien par A. Epaulard, Adrien-Maisonneuve éditeur, Parie, 1946, tome I, P41.

15) هم أربعة إخوة اشتهر منهم عروج وخير الدين. دخلا مدينة الجزائر بطلب من أهلها. قُتل عروج بضواحي تلمسان في 924هـ/1518م، وأكمل خير الدين مقاومته الإسبان بعد مقتل أخيه. ثم استدعاه السلطان العثماني ومنحه قيادة أسطول الإمبراطورية العثمانية بعد أن أدخل الجزائر تحت لوائها.

16)عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص 12 و 26، كذلك

Sidi Abd El Kader EL Mecherfi : "l'Agrément du lecteur : Notice historique sur les arabes soumis aux Espagnoles pendant leur occupation d'Oran ", in Revue Africaine, traduit et annoté par M.Bodin, n° 65, 1924, OPU, Alger, 1986, P 278.

17) Elie de la Primaudie :"Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574)", in Revue Africaine, n° 19, 1875, OPU, Alger, 1986, p 149.

18) A.Berbrugger : "la mort du fondateur de la régence d'Alger", in Revue Africaine, n° 4, 1859, OPU, Alger, 1985, p 367 .

19) محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوزاني السحار المراكشي الوحار: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية هوداس، مطبعة بوردين وشركاه، لمحي Angers، 1888، ص 17.

20) كرخال مارمول: إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأحضر، أحمد التوفيق، أحمد بنحدون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1988-1989، الجزء2، ص 310.

21) مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، جزء 2، ص 463، 464. لم نذكر تواريخ حكم الأمراء الزيانيين للاختلاف الكبير في ترتيبهم وتواريخ حكمهم الموجود في المصادر والمراجع.

22) Paul Ruff : Op.cit, P 35.

يجب الإشارة إلى أن الزيانيين كانوا يمثلون كلا الطرفين؛ الإسبان لأنفسهم والعثمانيين لمقاطعتهم. أنظر كرخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص 321. وقد تعامل أحد السلاطين الزيانيين مع الإسبان والعثمانيين في آن واحد، فإذا علمنا أن تلمسان لم يبق في حوزتها سوى منفذ بحري وحيد منذ 937هـ/1530م هو أرشقول، عندما طلب شارلكان في 943هـ/1536م من أبي عبد الله محمد السابع (931-949هـ/1524-1542م) غلق المنفذ في وجه العثمانيين، عملا بما جاءت به الاتفاقية بينهما، تماطل. وعندما استعمل قمس السلطان حاكم وهران دالكودييت D'Alcaudete عشرين يوما ليسلّمه الأسرى المسيحيين متذرعا بوجوب توفير أمنهم، في الوقع كان في انتظار رد حاكم الجزائر حسن آغا (940-950هـ/1534-1544م) على رسالة بعثها له طالبا فيها ألف جندي، ولأدهى أنه هدد حاكم الجزائر بالتحالف مع إسبان وهران إن لم تصله المساعدة. أنظر





E. de la Primaudie: Op.cit, P 166 ,et P.Ruff : Op.cit, P 78, et Renée Basset : Nedroma et les Traras, Ernest Leroux Éditeur, Parie, 1901, P 201-202.

23) P.Ruff: Op.cit, P153 تعرضت كذلك للدولة الزيانية لأضلاع جوارها السعديين حيث استولى أبو عبد الله محمد الشيخ (930-964هـ/1524-1557م) على تلمسان في 957هـ/1550م لكنه لم يلبث بها طويلا، و قتل ابنه الحران في المعركة. وعاود فعلته حين وصله أن سكان تلمسان حاصروا الحامية العثمانية بالقصبة في 967هـ/1559م. أنظر الوزاني: المرجع السابق، ص 36، كذلك أحمد السلاوي الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية)، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، الجزء3، ص 52 .

24) C.A.Julien : Op.cit, tome 2, P 251.

تقسم المنطقة لشرقية أولاد سلولة بالزاب و النواودة بالحضاب العليا والشاية بالساحل. أنظر

H'sen Derdour : ANNABA 25 siècles de vie quotidienne et de lutte/Menus Appendices sur l'histoire générale du grand Maghreb, SNED, Alger, 1983, tome 2, P 15.

والشاية طريقة صوفية وسياسية برزت في القرن 10هـ/16م، من زعمائها عروة بن نعمون الشاي (878-949هـ/1473-1542م) الذي خرج عن الحفصيين في سوسة والقيروان. انتشرت الطريقة في الشرق الجزائري.

25) استولى الأعراب على لسهول محاصرين بذلك كثير من المدن فالدثرت كثير منها فهجرة سكانها. أنظر

E.Carette : Recherches sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie, Imprimerie Impériale, Parie, 1853, P 421.

26) قبائل الشاوية بالأوراس قتلت حاكم قسنطينة الحفصي في 915هـ/1510م وبذلك رفضت عدة قبائل أخرى دفع الضريبة لقسنطينة ولا تعرف هذه القبائل سوى قبل الغارة وقطع الطرق. أنظر كرخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص 390، كذلك

J.Léon l'Africain : Op.cit, tome I, P 44.

27) استحوذت قبيلة النواودة على السهول المجاورة لقسنطينة وجعلتها مصيفا لها من حرارة الصحراء، وتنازعت مع الشاية على هذه المنطقة، وفي الأخير اتفقتا على اقتسامها وجعل الحد الفاصل بينهما واد بومرزوق حيث اكتفى النواودة بالمنطقة الواقعة بين قسنطينة وسطيف. كما تلوّن أولاد يعقوب بن علي، و هم فرع من النواودة أبو بكر الحفصي حاكم قسنطينة. أنظر محمد الصالح بن العنتري: فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 28، كذلك

L.Charles Féraud :"les Beni-Jellab sultans de Tougourt: notes historiques sur la province de Constantine", in Revue Africaine ,n °26, 1882, OPU, Alger, 1986, p 256, et Féraud, « les Harar seigneurs des Hanencha : Etude historique sur la province de Constantine », in Revue Africaine, n°18, 1874, OPU, Alger, 1986, P 143-144.

28) كانت المدينة تدفع ضريبة لكنها اشترطت أن يحضر السلطان الحفصي شخصيا لتسلمها وإلا امتنعت عن الدفع. أنظر

J.L.l'Africain : p.cit,tome 2, p438.

29) ثار بعض الزواوة في 906هـ/1500م على الأمير ناصر بن محمد الحفصي وحاصروه بقسنطينة بواصلوا زحفهم نحو الشرق إلى أن استقروا بمنطقة القبائل أين كونوا سلالة حاكمة عرفت بإمارة كوكو. أنظر

J.N.Robin :"Notes sur l'organisation militaire et administrative des tures dans la grande Kabilie", in Revue Africaine , n °17, 1873, OPU, Alger, 1986, P 132, 134.

30) سيطرت عائلة المقراني على أحواز قلعة بني عباس بمنطقة البيبان، وأسس حاكمها عبد العزيز القلعة الواقعة شرق هضبة مجانة وأحد الضرورة وكان له محاربون. وعبد العزيز هذا هو الذي أدخل لقلعة المدافع الثقيلة وكان أحد المحاربين الشجعان بالجزائر وسلطان الجبال. رفض الرضوخ للعثمانيين تحتميا بوعورة الجبال، متلوشا القبائل الخاضعة لهم. منعه خير الدين بربروسا بعد فتحه لجيجل من دفع الجزية للإسبان بجاية. أنظر

E.Vayssettes :"Notices sur les canons de la Kalâa des Bénis-Abbès", in Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la Province de Constantine, 1865, Alessi et Arnolet editeurs, Constantine, 1865, p 36, 37.

31) أحمد المبارك بن العطار: كتاب تاريخ بلد قسنطينة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 1645، نسخ 1269هـ/1852م، ورقة 14 ظهر.---32) لوي كرديالك: المرجع السابق، ص 27.

33) Père J.Mesnage : Le christianisme en Afrique ( église mozarab – esclaves chrétiens), A.Jourdin, Alger et August Picard, Parie, 1915, P 143.

34) C.A.Julien : Op.cit, tome 2, P 251.

35) أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (1492-1792)، الطبعة 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 86-87.

36) C.A.Julien : Op.cit, tome 2, p 252.

عانى الإسبان بالمدن المحتلة نوعا من الحصار لأنهم لم يكونوا على اتصال بأهالي الداخل والتموين عبر البحر عرف مشاكل رغم عودة بعض البحاثين لمدينتهم بعد الاحتلال. أنظر

C.Férraud : « Conquête de Bougie par les Espagnoles (occupation de Bougie) »,in Revue Africaine , n° 12, 1868, OPU, Alger, 1986, P 341.

يذكر جوليان أن من أولى الحامية الإسبانية بيونة من فضل الدخول في الإسلام هربا من المعاناة. أنظر

C.A.Julien : Op.cit, tome 2,P 253.

37) F.Braudel : Op.cit, tome 2, P 187, 188.

38) A.Berbrugger : Mers-El-Kebir..., P410

لا أعتقد أن هذا هو السبب الوحيد فقد كانت إسبانيا، وهي في أوج ازدهارها، تعاني من المشاكل مع جوارها الأوروبيين، كما أثبتت على الاكتشافات الكثير ولم تستطع، مع هذه الأعباء، بسط نفوذها ومحاولة تمديده. أنظر كرخال مارمول: المرجع السابق، الجزء 2، ص 331.

39) E.Carette : Op.cit, P 424.

40) مولاي بلحميسي: "نهاية دولة بني زيان" في مجلة الأصالة، السنة 4، العدد 26، مطبعة البعث، قسنطينة، 1975، ص 31.

41) Fray Diégo de Haëdo: Histoire des rois d'Alger, in Revue Africaine, n°24, 1880, OPU, Alger, 1986, p51.

42) J.L.l'Africain : Op.cit, tome 2, p 326 et 342 et 351 et 409.

43) نفسه، جزء 2. وأضاف أن سكان مسيلة ألوا إلى الفقر بسبب الأعراب والضرائب التي كانوا يدفعونها لحاكم بجاية. أنظر ص362.

44) كرخال مارمول: المصدر السابق، ج2، ص296-300-323-351-352-361.---45) نفسه، ج2، ص 374، 375.

46) G.Marçais :"Bidjaya", in encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, Tome 1, A-B, éditions Maisonneuve et Larose, Paris, 1975, p 1241, et R.Mantran : « La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab-Ibahriye de Piri Rais »,in revue de l'occident musulman et de la Méditerranée,n° 15-16, 2eme semestre 1973, imprimerie Louis-Jean, Aix-en-Provence, P 165.

47) كرخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص 358.

48) A.Berbrugger : « Le fort de Cherchel », in Revue Africaine, n°9, 1865, OPU, Alger, 1986, P 205.---- 49) Charles Brosselard : « les inscriptions arabes de Tlemcen », in Revue Africaine, n°5, 1860, OPU, Alger, 1986, p15.

50) عبد الفتاح المقيمي: موسوعة تاريخ المغرب العربي، دراسة في التاريخ الإسلامي: بني حفص وبني زيان وبني مرين لبني وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994، ج 6، ص58.---51) كرخال مارمول: المرجع السابق، جزء 2، ص296 و297 و 350 و 352.---52) نفسه، الجزء 2، ص296، 297.--- 53) مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 33.

54) J.L.l'Africain : Op.cit, tome 2, p 408 et 368 et 452.--- 55) Ibid, tome 1, P 43.

56) A.Berbrugger : Les époques militaires de la grande Kabilie, Bastide libraire-éditeur, Alger, 1857, P 104. -- 57) J.N.Robin : Op.cit, p 134.---- 58) A. Cour : Op.cit, p 50.

59) كرخال مارمول: المرجع السابق، الجزء 2، ص 301.---60) نفس المصدر، الجزء 2، ص 377.





61) الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وتونسا إلى أواخر القرن 19م، تحقيق ودراسة: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، جزء 1، ص150 كذلك

Eugène Plantet : Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), éditions Bouslama, Tunis,1981, tome I (1579-1700), p15.

62) ابن رقية التلمساني: المصدر السابق، ورقة 6 ظهر.---63) عبد الرحمان بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، المجلد 6، ص 6 و 75 و المجلد 7، ص 5.---64) كرخال مارمول: المصدر السابق، ج2، ص361.--- 65) نفسه، الجزء 2، ص 361..

66) J.L. l'Africain : Op.cit, tome 1, P 29.--- 67) Ibid, tome 2, p 440.

68) Mahfoud Kaddache: L'Algérie durant la période ottomane, OPU, Alger, 1991, p 3, 4.

69) G.Marçais : "ABD AL WADIDES", in Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, tome 1, A-B, J.Brill G.P, Maisonneuve et Larose S.A, Parie, 1975, P 96.

70) كرخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص 361.

71) J.L.l'Africain : Op.cit, tome 1, P 28-29.

72) Arnaud : "voyages extraordinaire et nouvelles agréables par M^ed Abou Ras B.Abd E.Kader Ennasri: histoire de l'Afrique septentrionale », in Revue Africaine, n°24, 1880, OPU, Alger, 1986, P 181.

73) حسن جوهر وعبد الجواد صلاح الغرب: المغرب، سلسلة شعوب العالم: 13، دار المعارف بمصر، د.ت.ص 38.

74) ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ، وزارة الثقافة والسياحة-المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، جزء 4: العهد العثماني، ص 100.---75) عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث (الجزائر-المدية-مليانة) بمناسبة عيدها الألفي، من سلسلة دراسات وأبحاث، الطبعة 2، مطبعة صباري بدر الدين وأبناءه، الجزائر، 1972، ص 114.

76) نفسه، ص 114.---77) ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي: المرجع السابق، الجزء 4، ص 104.

78) كرخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص 350.--- 79) الحافظ التنسي: الجانب الأدبي من مخطوطته: نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ملوك الدولة الزيانية الجزائرية، تقديم تحقيق وتعليق: بوطالب محي الدين، منشورات دحلب، د.ت، ص 23.

80) J.L.l'Africain : Op.cit, tome 2, P 348.

81) A.Cherbonneau : « Inscriptions arabes de la province de Constantine et de Tunis », in Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine, (1856-1857), Bastide et Arnolet Libraires-Editeurs, Constantine, 1858, P 98.

82) كرخال مارمول: المصدر السابق، جزء 2، ص 381.

83) Elie de la Primandie : « Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574) », publiés dans la Revue Africaine , n°21 et suivants, 1877, OPU, Alger, 1986, P 77.---

84) J. L. l'Africain : Op.cit, tome 2, P 407.

85) كرخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص 352.

86) J.L.l'Africain : Op.cit, tome 2, p 369, 370 et 372.

87) كرخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص293 و 325 و 359.

88) J.L.l'Africain : Op.cit, tome 1, P64.

89) كرخال مارمول: المصدر السابق، جزء 2، ص 359.

90) أبو زكريا يحي المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر رقم 1335، نسخ 1245هـ/1829م، الجزء 1، ورقة 180 ظهر. وقد أفتى المازوني بقتل قطاع الطرق من الأعراب، واعتبر من مات وهو يحاربهم شهيدا. أنظر المصدر السابق، الجزء1، ورقة 181 وجه.---91) كرخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص 379.

92) F.D.Haëdo: Op.cit, P 51.

93) عبد الله لحمي: التصوف والبدعة بالمغرب طائفة المكاكزة ( ق 16-17م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2000، ص 91.---94) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، الجزء 1، ص 110.

95) أحمد بن يحي الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1981، الجزء 11، ص 299.

96) الحافظ التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، حققه وعلق عليه: محمود بوعياد، من سلسلة النصوص والدراسات التاريخية 6، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1985، ص 59.

97) إبراهيم التازي: ضمن مجموع، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 2266، نسخة 1141-1144هـ/1728-1731م، ورقة 131 ظهر، كذلك محمد بن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص60. وإبراهيم التازي توفي في 866هـ/1461م.

98) أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الصباغ: بستان الأزهار في منتقب زعيم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي لنسبه والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 1707، نسخ 1140هـ/1727م، ورقة 3 وجه.

99) J.L.l'Africain : Op.cit, tome 2, P 408.

100) Ibid, tome 1, P 36.

101) محمد بن مريم: المصدر السابق، ص 279.---102) محمد بن عسكر: بوجة الناشر لمحاسن من كان من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، سلسلة التراجم، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص 127.

103) عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، دار الجيل، بيروت،د.ت، ص 588.---104) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي جمعة المشرفي المغراوي الوهراني: الجيش الكمين لقتال من كفر عادة المسلمين، القسم الأول من مجموع، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 2301، ألفه في 920هـ/1514م، ورقة 7 ظهر.

105) L.Villot : Mœurs, coutumes et institutions, éditions libraire Adolphe Jourdan, Alger, 1888, P 461.

106) عبد الرحمان عبد الخالق: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الطبعة 4: مزيدة منقحة، دار الجوهرة للطباعة، القاهرة، 1993، ص195. ---107) لطفي عيسى: المرجع السابق، ص 8، و 134.---108) نفسه، ص 89، 90، و 105.

109) عبد الله العروي: المرجع السابق، الجزء 3، ص 24.

**Abstract**: At the outset of modern times, between the fifteenth and sixteenth centuries, Algeria witnessed some rotten condtions in all fields ; either political, social , economic or cultural which ranged from the rulers' fight upon thrones to the Arabians' grip on the citys' inlets and outlets. In addition, the Andalusians' immigration worsened the situation as it gave further justification to the Spaniards to colonize the coastal cities of the Mediterrannean southern shore. This led to economic decline for the external trade was ruined by the Spanish raids, while the internal was destroyed by the Arabians' attacks, and resulted in social decline. The lack of road and traffic security, in its turn, negatively influenced commerce and led to lower living standards and to famine and it even impacted the population psychological health. Consequently, culture and science regressed during that era, and both thinkers and scholars became imitators of their predecessors by documenting, explaining or borrowing from them, and in better cases they would isolate themselves from the people and live into seclusion.

As a reaction to such a situation which crystallized, on the one hand, in the Spanish colonization to the coastal cities, their involvment in the Zianids' and Hafsids' State affairs and in the rulers' failure to face the external danger, on the





other, some soufis (al motassawifa) called for an alliance with the Ottomans in order to rescue the land and its people from the 'unbelievers.